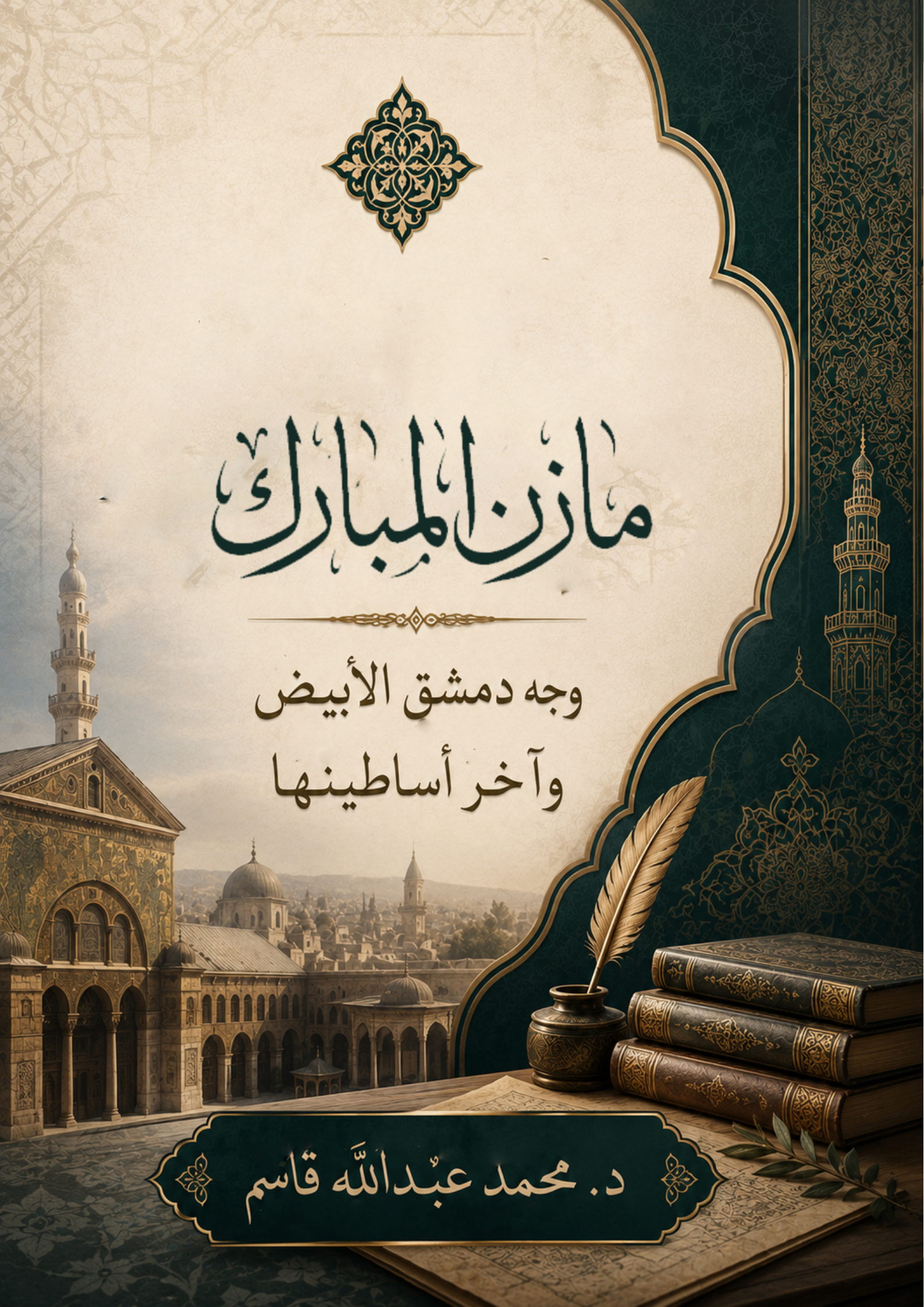
مازن المبارك
وجه دمشق الأبيض
وآخر أساطينها
د. محمد عبد الله قاسم

# مازن المبارك

## وجهُ دمشق الأبيضُ وآخرُ أساطينها

في رثاء شيخ أشياخنا ريحانة دمشق وعالمها الأغرّ الأجلّ

أبي زاهر مازن عبد القادر المبارك

كتبها: د. محمد عبد الله قاسم

ما زال هذا الاسم الأثير (مازن المبارك) يطرُق سمعي من لَدُنْ كنتُ يَفَعةً قد اضطَرَم حبُّ العربيَّة بين جوانحي، فيقع في رُوعي: العلمُ والتواضعُ ولُطفُ المَعشَر وحبُّ الناس، كلُّ أولئك رزقٌ أيُّ رزقٍ!

وما إن تقدَّمَت خطُواتي في سبيل العربيَّة حتَّى رأيتُ هذا الرجُلَ الجليل صُوَّةً بل منارةً من منائر العربيَّة يتهدَّى بها منِ اتَّخذ هذا اللِّسانَ العربيَّ المُبينَ شِرعةً ومِنهاجًا: علمٌ جمٌّ، وانتماء إلى أصول هذا التراث، وخُلُق رجال الصَّدر الأوَّل مِن سلفنا الصَّالح:

موفَّقٌ لسَبيلِ الرُّشدِ مُتَّبعٌ / يَزِينُهُ كلُّ ما يأتي ويجتنبُ

له خَلائقُ بِيضٌ لا يُغيِّرُها / صَرفُ الزمانِ كما لا يصدأُ الذهبُ

ثم صارت كتبه المحقَّقة: الإيضاح واللَّامات للزجَّاجيِّ، والمُغني والمباحث المَرضِيَّة لابن هشام، وسواها، مِن مصادري التي لا أُدِير وجهي عنها، ولا سيَّما أيام الماجستير.

وكانت سَجاياه الغُرُّ ممَّا لا يفارقُ لسان شيخيَّ الجليلين الدكتور محمَّد أحمد الدالي رحمه الله، والدكتور نبيل أبو عمشة نسأ الله في أجله، وملَّانا به.

ثم قرأتُ له طائفةً من الكتُب الصِّغار الجِرْم البِعاد الأثر: أخلاق دمشق، وهذا لسان عربيٌّ مُبين، ومِنَ القِيَم الدمشقيَّة، ولكلٍّ منكم جعلنا شِرعةً ومِنهاجًا، ونحويُّون قدماء ومُحدَثون.

ثم استمعتُ إلى محاضرةٍ ألقاها سنة ٢٠١٩م في مَجمَع اللغة العربيَّة بدمشق عنوانها: (محطَّات مُضيئة في مسيرة العربيَّة والتَّعريب)، فسحَرني بيانُه وصوتُه الهادر الصَّادح بجمال العربيَّة المتغنِّي بحُسنها، وما قيَّده مِن ألفاظ فات الناسَ الوقوفُ على أصولها والوجوه الصِّحاح في تعريبها.

لقد ألقى الله عزَّ وجلَّ محبَّة هذا الشيخ الجليل في قلبي، وشعَرتُ بحنينٍ غامرٍ إلى روحه النَّقيَّة، نمطٌ من رجال عصرنا عزيزُ المثال، وسيرةٌ حافلة بالعطاء.

لقد أمضى زُهاء سبعين عامًا في مَيدان التعليم يؤدِّي رسالةَ العربيَّة أحسنَ ما يكون الأداء، ويواظب على عمله بلا فتور ولا كَلال؛ يؤلِّف ويحاضر، ويُعنى بإصلاح المناهج، ويتابع ما يُطبَع من نصوص العربية العِتاق الأُوَل في مختلِف أمصار العالم الإسلاميِّ، وكان إلى ذلك شديدَ العناية بطلَّابه، يقدِّم لهم خيرَ ما عنده، ويوجِّههُم ويسدِّد رَمْيَهم، وقد رأى أنَّ صناعة الرجال لا تقلُّ عن صناعة الكتب، وقد تخرَّجَت به كوكبةٌ من العلماء تفرَّقوا في أصقاع الأرض ينشُرون عِلمَه وما ثَقِفُوه عنه، ولا زالوا يذكُرون فضلَه في العالَمِين.

ثم كان أن رشَّحَني لعضوية مَجمَع اللُّغة العربيَّة بدمشق، وزكَّاني عالمانِ فاضلان أخوايَ الدكتور محمَّد شفيق البَيطار رحمه الله رحمةً واسعة سابغة، والدكتور عبد الناصر عسَّاف أطال الله في عمره، ونفع به. ثم كانت جلسة انتخابي في ٢٠ أيلول ٢٠٢٣م، ثم استُقبِلت عضوًا في ٢٨ شُباط ٢٠٢٤م في حفلٍ أقامه مجلس المَجمَع، وكان الشيخُ الجليل الدكتور مازن زينةَ الحفل، وممَّا قاله لي عَقِبَ انتهاء الحفل وإلى جانبي رئيسُ المَجمَع ومَن ألقى كلمةَ استِقبالي: "مُبارك، الآن سأموتُ وأنا مطمئنٌّ على المجمع". فكانت كلمتُه هذه قَيدًا من الأمانة والمسؤوليَّة والثقة لا تزال دموعي تفيضُ كلَّما ذكَرتُها وذكَرتُ ما آلَ إليه أمرُ المَجمَع.

ثمَّ انتخبَني رُصَفائي المَجمَعيُّون أمينًا للمَجمَع خلَفًا للدكتور الجليل مكِّي الحسَني في تَمُّوز ٢٠٢٥م، وكان ممَّا قيَّده بصوته على صفحة أعضاء المَجمَع مُهنِّئًا: "هو في الحقيقة نسرٌ صادفَ موقعَه".

ولمَّا انتهى إليَّ أن الشيخ نُقل إلى المشفى هُرعت أنا وأخي الدكتور يحيى مير علم إلى عِيادته أرجو أن تكتحلَ عيناي بمرآه، ولمَّا نظَرتُ إليه أصَبتُ رُوحًا مؤمنةً آمنةً يحيطُ بها النورُ واليقينُ إلى يقظةٍ تامَّةٍ يُودِعُها الله فيمَن يشاء مِن صفوة خَلْقِه.

رحمَ اللهُ شيخَ دمشقَ والغُرَّةَ الشَّادخةَ على جَبينها أستاذيَ وشيخيَ الدكتور مازن الميمون النقيبة المبارك الطلعة:

وتكاملَتْ فيكَ المُروءةُ كلُّها / وأعَنتَ ذلكَ بالفَعال الصَّالحِ
ما قلتُ فيكَ فأنتَ أهلُ مَقالَتي / بل قد يُقَصِّرُ عنكَ مَدحُ المادِحِ

رحمك الله أيُّها الشيخُ الجليل رحمةً واسعة سابغة، ولا زالَ رَيحانٌ ومِسكٌ وعَنبرٌ على مُنتَهاك ما كرَّ الصباحُ على المساء. ولا زالت سيرتكُم العطرة وشِرعتُكم في العربية مِنهاجًا لنا وللأجيال من بعدُ لا نبغي عنها حِوَلًا.

وما كان قيسٌ هُلكُه هُلكَ واحدٍ / ولكنَّه بُنيانُ قَومٍ تهَدَّما

مازن المبارك عام ١٩٦٠ وعام ٢٠١٠